بحرٌ يمورُ على كفي

د. خالدة خليل

الكتاب: بحرٌ يمورُ على كفي
المؤلف: د. خالدة خليل

رقم الإيداع: ١٢٣٨٤ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-792-7
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

بحرٌ يمورُ على كفي

النَّص المفتوح

د. خالدة خليل

في الغابة طريقان مختلفان...

وأنا اخترتُ غير المطروقة منهما...

فكان هذا هو الاختلاف بأُسره...

«روبرت فروست»

نصٌّ بلا قيود... سماءٌ بلا حدود

حانَ قِطافُ الخَجل

مُدَّ يدك واعتصر جسد غيمتي المتورطة في خاصية اقتحامك اللذيذ لخلايا دهشة الشوق الذي يُفسِّر تعالُق الشهوات في فراغات ممتدة بين سطورك وسطوري على ضفاف لا وعينا، وظمأ نخلة حُبِّنا إلى ماء جنون ينساب دافئًا كخمرة الروح الأبدية.

هنيئًا لمرايا الجليد التي لم تفطن بعد لأريج حكايتي...

وكيف للجليد أن يُميِّز بين عبقٍ وعبق؟!

وهنيئًا لوجه صباحٍ يسرق حضوري مني، ويُبقيني أسيرة تلك اللحظة التي مازالت تنفخ فيها الحياة كل عبثها ومُجونها.

ها قد حان قطاف رؤوس الخجل...

فمُد يديك في نشيج الضباب المنتشر حول خندق ضاع في أثره جنودٌ مُدجَّجون بهزيمة حربٍ، أو ساعون نحو كسر رتابةٍ على خاصرة عُصوري.

لخزف هذا الحرف الذي ينبض بين الأصابع فيُشكِّل عبق المعنى خارج مسافة الصدى القادم من صوت فيروز...

آه يا فيروز، تتسللين بدفءٍ أكثر إلى أعماق اللون كلما تقدَّم بكِ رنين العمر أكثر، وتحنين ظهر الكون بغزوكِ الذي لا يُلائم الا الرقص على عتبات شمسنا الحارقة في منتصف «آب».

احصد أيُّها الفجر بمناجلك سنابل ليلي، وانفض عن صمتي النعاس المُتكدِّس على صدر الوقت.

أليس بوسعك أن تُقطِّر وِدَّك على تأمُلي قَطرةً قطرة حين ارتطام الموج بصخرة عنادي غير القابل للتهشيم؟

اِتحد بشرودي إذن في أسراب الشفق...

واحرس أجفانكَ من ضجيج أسئلتي التي تتآكل في عتمة محرابي.

ولكي أُبقي على أصابعكَ مُخضبة بفتنتي؛ سأُطلِق كل عباراتي التي ربَّيتُها في خَراب المُدن، ويباس اليد، وشتاءات حصار غير مُنتهٍ، إلا بسرقة الرحيق الذي استنشقته الفراشات.

الآن؛ كما قلتُ لك؛ سأُطلق عباراتي دون فواصل أمام

أبوابك ونوافذك المُشرَعة لفرس الريح الذي يُسابِق وجه النهار.

••••

هل تعرف كم رقصتْ نوارسي ألمًّا حين ارتدى القمر ثوب بكائيته يوم افترقنا؟

وكم خَرَّ الضوء مُنتشيًا عند لقائنا ثانية فوق أهداب مرتعشة؟

صحيح أننا لم نتبادل بعد الأنخاب، لكننا اغتسلنا بنبيذ الهجر، والروح تعتصر ما فيها من نكهة خيال، فأستحيل بين يديك الماهرتين جَرَّة تُبرِّد فيها سخونة دمعك.

أعرف تمامًا كم هي مُختنِقة أجراس أعصابك، وأعرف أن اشتداد أوتارها يكون دائمًا عند تخوم الخوف من اجتياحي المفاجئ لغموضك، فتنبثق كفتيلٍ من رَحِمِ شمسي المُتمردة ألوانًا وأشكالاً وصِورًا لما يزل اختلال مكوناتها رهين تلك الصعقة الأولى، أو الخيبة الأولى؛ كما يحلو لك أن تُسمِّيها.

••••

أمتطي خيالي كسربٍ تائه، وأنظر إليك، ومازلتُ أنظر رغم أعاصير الحياة التي تجهد كي تقتلع كل مرَّة جذور انتمائي إليك.

وما زال شراع الصدى يرتطم بجبيني مِرارًا، وما زالت تلك اللحظة تتكوَّر بين يديك، فُتغلق الدائرة حولي كشريطٍ من نار شوقٍ كي نحترق معًا، وننطفئ معًا.

اِقترب... اقترب أكثر... فأنفاسك ترشح الزهر الملائكي رغم صوتك المغمور في قاع ريبة مخيفة...

اِقترب كي ترى كيف تتلعثم عينيّ حين لا تستقران على هوامش القلق من ردتك عن نبضي.

هل يمكن أن تتصور أن حتفي سيكون في ارتطام بلورات عشقي بأمواج رهط أول من شعراء غائرين حضورًا وسياقًا؟

غصة حلم في الطريق إلى صمته الأبدي

كُلمَّا اقتربتْ بيننا المسافات أكثر؛ اتسعت هوة الحماقات أضعافا!

أمَا كان لتلك اللحظة المتعجرفة أن تكون نسيما يدغدغ أعصابنا فنضحك منه، بدلاً من أن تكون ريحًا عاتيةً تقتلع عين حلمنا؟

أما كان لتلك اللحظة المجنونة أن تكون كأصابع أُمٍّ حنون تشد بقلبها المرهف أُذن ابنها المراهق، بدلاً من أن تغور سيفًا في خاصرة أشواقنا ولهفتنا؟

لكننا لا نجيد فن السُّخرية من أكذوبة اسمها «الحياة»، جعلتْ تلك اللحظة مُعلَّقة على خطأ ديك الجن، وكان يجدر بك أن تحني قُبعة غرورك لقداسة الحب الذي تنحني له الطيور وتُحلِّق الفراشات حول نوره بأمان.

أعرِفُ أنني وحدي من يحمل أوزار تلك العثرات، وأُدرك تمامًا أن النهر حين يفيض بالجري لا يعود إلى مصبِّه أبدًا، لكنني توقعتُ أن الحمامة أو الغراب قد يعود أحدهما بغصن زيتون إلى قلبي الذي أرهقه طوفان التعب، فلا عاد لي غراب، والحمام كله أضاع وجهته.

أعترف أنهم استطاعوا أن يُمزِّقوا نسيج العنكبوت ليصلوا إلى قلبك النبي، وكانوا يحيكون المؤامرات تلو الأخرى حين علموا أني أعزف لحن العشق على أوتار قلبك...

حشدوا من كل قلب ضغينة كي يهدروا دماء حُبي بين قبائل الأوهام.

كهفُ حُزْن

هنيئًا لهم...
سرقوكَ مِني، وعُدتُ إلى الغار وحدي بلا نبي، ولا دعوة.

هنيئًا لهم عودتي إلى كهف حُزني الجاهلي، ومازالت أصابعي تُمسك بقوة حجرًا صغيرًا، وترسم به على جدران الكهف مسَّلة رسائلي المحفوظة في الذاكرة.

هيِّئ قلبك إذن لقداس البُّعد، وسأُهيِّئ أصابعي لقيامة الحرف.

ما تزال عالقة في ذاكرتي أخر جُملة قُلتَها لي:
- آآآه يا أنتِ، أحبكِ بلا حدود.

وما زلتُ أذكر أخر جُملة نطقتْها شفاهي في لحظة ثمالتي فيك:
- لو كان الإنسان يُعبَد؛ لاِتخذتُكِ دون إله الناس إلهًا، ولقدَّمتُ لك في كل ثانية قُربان حُبٍّ، وكشطتُ عن

شموع سنواتنا القادمة شمعها المُذاب...

وغاب عني أن جُزر حُبك عائمة على ظَهْر حُوتٍ تائه، فعجزت عن قطف شوك القساوة عن زهرة قلبك المُترف حتى أخره بالغرور.

أتأبطُ خساراتي المزمنة وأهرع نحو باب الصُّلح الذي فاجأني أنه يحمل يافطة تقول: «مُغلق»!

لا دعوات الأُم ولا نداء الحب يمكن لهما الآن يصنعا جسرًا يربط أحلامنا، لأنك نسيتَ «غُفران المعري» وتشبثتَ بـ«جحيم دانتي»!

كنت أظن ألا غيركَ قادر على أن يُقلِّم الوجع عن أيامي، لكنك لم تكن سوى طفل مشاكس ومُدلَل حين توقفتْ لعبته عن الضحك؛ كسَرها.

انكرتَ دعوتي، وبصقتَ على وصايا قلبي، فصرتُ كمن يجمع زبد الخذلان من بحر العُمر الميت!

••••

الذكرى مُحارِب شديد البأس أمامي، ومن ورائي بحر خساراتي فيك، فأين المفر؟

كنا على وشك أن يتفتق لوزنا...

كنا على وشك أن يُطلِق لقاؤنا قوسه بعد أن اشتد وتر الانتظار...

لكنك نثرتَ أخر أوراقي من برج غرورك.

أغتسل بدمعي الآن، لأنني أدركتُ أن الحياة كذبة نحن نصنعها!

لماذا ورثنا كل هذا الخوف؟ وحملنا في دواخلنا الجحيم؟

يقينًا أيُّها القلب نحن لا نُجيد سوى إطلاق رصاصات الرحمة حين تضع الزهرة ثقتها فينا...

فاسترِح مني...

اِسترح من عشقي الذي نضج على بخار الألم...

سنستريح في حضن الصمت الأبدي.

النِّداء الأخير

أرتقي الآن أعلى قمة حُزني، وأُشرِع يديَّ لإعصار الخيبات القادم من روحك.

أصرخ... وتردُّ الأيام صدى صرختي بَرقًا ورعدًا، لتتفطر أرض تكويني الأول.

أجمع صلصال جنون، وحزمة ضوء، وتُربة أولى، وأُكدِّسها في أقصى زاوية من يأس الروح.

وقبل أن تتورط أصابعي بالوثوب إليك؛ كنتُ أمدُّ ذكرياتي أُفقًا أرسم فيه حدود ما أسميتها أنت خطايانا...

خطايانا التي لم تكن أكثر من عبثٍ طُفوليٍّ يحمل نقاء الدمع ولون الحُب وبراءة المعنى.

أُعيدُ الطَرق على باب قلبك الموصد، أراك تعتلي تجاهلك، ويعتليك غموضك...

يقينًا لم يُطهِّرك الحُب بعد!

كان اشتياقك إليَّ غصَّةً أزفرها، فتُطفئ شمعة كلما حاولت إضاءتها من جديد؛ ذابت على رفِّ الكلام.

كان حُبنا زنبقة تكفَّلها المطر، ولم تشأ الريح إلا ذُبولها.

فيك انحدار نحو اليقظة المتعمدة، وفيَّ وثوبٌ إلى الحلم أبدًا.

أخيرًا، اِنهار ذاك الطوطم الذي أنهكتني طقوس عبادته...

أخيرًا، رحلتْ قبائل الصمت، وغابت رسائلك الصباحية المُطعَمة بنكهة قُبلة باردة عبر الأثير لتلجم حنيني إليك.

صعبٌ غيابك، بالرغم من هالة الشَّك التي تُحيطني بها، ورُمح الغدر الذي رميتني به.

آن الأوان لأُعزِّي روحي بغياب رُكني المملوء حُبًّا وعشقًا وشوقًا وعبثًا في قلبك المليء بأطلال نساء عابرات ومُغادِرات، وربما قادمات.

أرفعُ يديَّ العاريتين أمام أمواج غيابك العاتي، وأُبحر بلا أشرعة في مزاجك المتقلب...

أُشعل شمعة، وتطفئني أُخرى، لأترك نبضي يتجاوز عدّاد العمر، وأُلقي بروحي تحت ظلال روحك الغادِرة.

أتأبط رحيلك...

أُرتِّب رسائلي على وِفق مراتب الحُزن. وأشحن قصائدي بوهجٍ لا أضمن استمراره.

كنتُ أريدك غيثًا بطول صحرائي، فكُنتَ ندى لا يُبلِّل حتى زهرة منسية على غصن انتظارات.

أردتُ لهديرك أن يختلط بموسيقى خافقي، وإن كانت مصائد أدغالك تُخيف غزالاتي...

مصابيح حكاياتي يكاد ينفذ زيتها، وضاع سُدى انتظار قُبلة حلمتُ بها سترسم البياض على تنهيدة سنواتي الضائعة في انتظار ما لا يأتي أبدًا.

••••

ضُمّني إليك ليهدأ خوفي...

ضُمّني واقرأ تعويذة الغياب...

ولا تهدِّدني بقضبان انتظار مؤبَّد.

شدّ إلى شجرة شاعرة مجنونة فيك، حَبْل حِكمتك. فأنت وحدك في قلبي، جدائل ضوء تفرش أُمنياتي أملاً.

وها أنا ذي أُهيِّئ اليوم لصباحي باقة خسارات أُقدِّمها عزاءً لغيابك يا أيُّها البحر المحكوم بالمَدِّ والجَزر، ومزاجات المواسم والأعاصير...

أشدُّ إليك سِراطًا، لنعبُر من فوقه، تاركين وراءنا الأشجان، وعابرين إلى ضفة، تحفل بانتصاراتنا وبانتكاس أعلام البُعد.

لِقَاء نـيء

نُلملم أشلاء الروح على إيقاع الأسئلة، حتى ربت الموعد على كتف المُصادفة للقاءٍ يجمعنا.

كنتُ أترَّقب بحذر كيفية تفكيك ذاك اللغم الذي يُسمَّى حُبًّا قبل أن تتبعثر أشلاء الخجل، أو يعرق جبينك!

كنت أسبر أغوار المتاهات في عينيك بصمتٍ وأنين، وبخطواتٍ عمياء...

وأتساءل:

ألستُ أنا التي أقود قوافل الحروف، نحو فيافي الشعر، هل أصبح الصمت زوادتي؟!

جمعتُ ما تناثر من عقد الكلمات، دون أن أُفكِّر في تشخيص هذه الحالة أكثر، في غمرة اشتهائي لتقبيل عينيك...

أوقدتَ سيجارتك الأولى ونفثتَ في الهواء مبتسمًا، قبل أن أُرتِّل أدعية تُهوِّن من الزخم العاطفي الذي صبَّ جِمَّ لهفته على تلك الأريكة التي جمعتنا في صالة انتظار!

أسألك في مخيلتي دون أن أؤذيك بالكلمات، وحلمي مسدل الأجفان:

هل لامس الغيم العابر شفاهك في غيابي ليمنحها رطوبةً ما؟

تراجعتُ عن السؤال... يبدو أنني وقعتُ في كمين الغيرة، وإلا فكيف يمكنني أن أتصور كائنًا مرهفًا مثلك منزوعًا من العلاقات أو مجردًا من الذكرى؟

أقتات الصبر، أراوغُ الوقت بحمى الحلم، وأعلم أنك عصيٌّ على الحُبِّ، وعالمك بعيدٌ... بعيد...

مازلنا جالسين على تلك الأريكة التي بدأتْ تملُّ من القلق والتردد المُتسرِّب من أنفاسي إليها، أكاد في أي لحظة أُفجِّر تلك العبوة من المشاعر.

لقد عبرتُ قارات الشوق إليك، لكنك لم تبسط للحب جناحيك...

ارتبكتُ، جفَّ صوتي... بدأتُ أهزُّ بقوة جذع اللغة،

فأبى أن يتساقط علينا ثمر الكلام!

اقتنصتُ من عينيك سحابةً عابِرة، لأتأمل تفاصيل وجهك بمنظار التجارب والخيبات التي مررتُ بها في حياتي...

كان لدي إرادة جامحة في ملامسة تلك التفاصيل وتقاسيم وجهك الهادئة، كنت مثل يافع باغته العالم بشراسة وهو يطارد المستحيل بأنفة الغرور المجنون، وفي ذاكرته نصف تفاحة!

هل حقًا نسيت ماتركته لي في المرة الماضية؟

إن كان نصف قلب أم نصف تفاحة؟

يبدو لي أنه نصف دينٍ لن يكتمل الا بنصف جنون، أفرغته من كأسك في كأس قلبي!

مازلتُ أقايض تلك الصدفة بالحسرة، وبتمرير أصابع اشتياقي على شفاه لهفتك العابرة...

آآآه كم هي خائنة تلك الأصابع بنكهة التفاح!

خائنة بلهفة المواعيد، والأمنيات الخضراء...

اِنفجر السؤال:

– هل مازلتِ تكتبين؟

– أفقأ دمل أحزاني في غيابك، أجازف أحيانًا بتهريب بارود الكلمات لأُقاتِل على الضفة الأخرى من ذلك الفراغ الممتد من قلبي حتى جبهتك!

وقبل أن تصدأ كلماتي مثل غيابك أحاول تلميعها...

مدَّ يده بهدوء وانتزع سيجارة أخرى، وقبل أن يُشعلها نظر في عينيّ ليحاورهما في اللون والغياب والحضور...

اهتز العالم من حولي...

زلزال لم أشعر مُذّ خُلِقتُ بمثله، عجز ريختر الأشواق عن تحديد قوته...

تراقصتْ حولي الآلهة حافية القدمين، تنتظر قُربان اعترافي...

فلم أجرؤ...!

اشتعل قلمي ثانيةً بوقود وهمٍ عصيٍّ على الإطفاء هذه المرة...

ومضى كلٌّ منا إلى سبيله.

أردتُكَ بريئًا، مجنونًا، طموحًا، لا تستوعبه الأكوان،
لكنك لم تترك لي سوى ذاكرةٍ بلون القلق.....

والنصف الآخر من تفاحة سقطت في فخِّ السؤال.

شريعة الشَّوق

بي وطنٌ من أُمنيات...

وفيك عاصفة تُقايِضُ الهدوء بالحرائق!

ما أطول ممر هذا الليل الذي أخالُه لن يوصل بين أصابعي الهائجة وأصابعك الندية!

هذا النبض قد أعلنها حربًا على أوصالي التائهة، وأسدل ستائر الوهم عن ما أسميته أنت بـ «التراجيديا».

أبحث عنك هنا بين أحرُفي الضالة حُلمًا رسمه قلمي وحرسته الورقة البريئة، كي لا تضيع مني في دهاليز الواقع المؤلم...

أُبحِر معك كل لحظة في خيالي الجامح لتُنسيني تاريخًا قد مضى بالآمه، وتُنير نفقًا قد زاد من عتمته غموض الأسئلة!

رميتَ لي ذاك الطُّعم في شِباك الوجد...

ثم تركتَ وراءك ندبةً في الروح، حملتُ أوزارها وحدي حين تركت زهرة عمري وقُبلة ما تزال رطبة على باب قلبك.

يا لهذا الجسد الذي قد تحوَّل، بعد رشح الأيام وتقشير السذاجة، إلى سيجارة لا تحتاج لإشعالها سوى عود لقاء بِكر، فأتقلَّب على جمرٍ، وترتشف مني أبجدية حرفٍ أول.

تلفحُ وجهي أنباء هذا المساء، أهو قطار الذكرى الهادر بلا محطات، أم هي رياحك يا هيلين باتت تُوقِظُ على أرصفة الخواء الأساطير؟

حبلٌ سِرِّيٌ للحلم أنت، موثق بشجرة القدر، قدري...

لن يقبل أحدٌ أكذوبة حلمي سوى المِرآة...

هي المِرآة وحدها التي تسمع أنين قاراتي البعيدة.

وأنت يا المنفى مازلتَ تُحاصِرني بين لحظة مدمعة، وأخرى خرساء توصد الوهم، في انتظار مرثية جديدة، لوطنٍ بلا أشرعة.

سأُعلن عن انهيار كابوسك، في لحظة عصف، أيها العمرُ العصيُّ على صدأ المستحيل.

أُبتليت بك...

لماذا يرفض هذا الجسد أن يؤرِّخ إلا لمعزوفة أصابعك؟!

أسرج الوقت بالقصائد، وأمتطي الحرف في رحلة الأوطان، لعلّي أُدرك كم من بلاغة الصمت علَّمني حبك...

كانوا يذرون ملح الفراق في أعيننا...

هواجسنا فرَّقتنا يا توأم الروح...

ها أنا أغرس وسط عشائي الأخير صليب الخرائط، وأنتظر أن تتوتر أطراف الكون أكثر.

إنه الصباح الذي ينفث الآن بركان حماقاتهم، في قربة جهلي بدور «مارتن لوثر» وأدوار الآلهة.

فهل كنت ملاكًا تلقَّفته «بابل» من براثن البراءة؟!

حُمى تشرين

أتذكر جيدًا يوم فتحتَ حقيبة ذاكرتك أمامي لأول مرة، كُنتَ تتماثل للشفاء من ماضيك، تروي لي وحسرتك تقفز أسوار الروح.

أفرغتَ الكلمات من تلك الحقيبة المزدحمة، وعلَّقتَها أمامي حرفًا حرفًا، بكل نبضه المتدفق شجنًا...

كانت جميع المدن في الوسط والجنوب تشهد تظاهرات استعارت من «تموز» لهيبها، ومن «آب» صمودها، ومن «سبتمبر» ذكراها.

إنها حُمى «تشرين» نزلتْ إلى الشوارع لأول مرة، رافقها الرصاص والموت والفوضى.

كنتُ أُصوِّب رصاص نظراتي نحو قلبك...

لا أدري هل كانت عن قصد أم مصادفة، حين حاولتُ التقرب منك لأجمع حبات اللؤلؤ المتناثر على خدك

بين شفتيّ، وكأنني في لحظة خشوع إلهي في معبد «كيلاسا».

تعلَّمتُ من غيابك الجفاء، وتعلَّمتُ ألا أفتح كتاب صدري وأروي شجني للعابرين...

ألا أحرق أصابعي على الدوام لتُضيء لآخرين، يهدرون دمَّ التضحيات في أروقة الجهل...

تعلَّمتُ أن الصدق ليس الطريق الوحيد للنجاة، وأن هناك طُرقًا أخرى، لكنها أكثر تشعُبًا ومغامرة.

دعنا نتغاضى إذن عمَّا مضى، ونُغمض أعيننا عن حماقات الآخرين، فلا شيء غير حُبك يستحق العناء أبدًا.

يُصارِع هذا الصدق في ضفة أخرى من العالم، حُبًّا كاذبًا مثل حمل كاذب، مثل حلم كاذب، مثل دمع كاذب... وكلها تقع خارج لعبة المنطق، لكنها ضرورية أحيانًا لكي نعيش تفاصيل الحياة ذات الوجهين ونتأرجح بين ثُنائياتها المتضادة حدّ الجنون!.

يتساقط الشباب في الشوارع، والقاتل مجهول دائمًا. لا أحد يعي حجم المخاطر القادمة التي تربت على كتف هذا البلد المرهق.

يحولون ساحات الفرح إلى حزن...

يقتلون بلا هوادة...

ورصاصهم لا يستقر الإ في جوانب الرأس العنيد لمغامر شاب...

أُردِّد بصمت:

لا أخافهم، لكنني أخاف من قيدٍ أدمى معصميّك أيها الجريح، وأنت تتلقى في معادلة غير متكافئة ضرباتٍ يتنافس الجميع على تسديدها إليك من كل صوبٍ وحدب...

أهرع نحو أحضانك، وأنا أنظر إلى الخراب حولي، بعينيِّ طفلةٍ مازالت تعيش براءة الظنون.

الحُبُّ نعيمُ القلب وشقاؤه، يُقاس بمقدار شدّ وتر الانجذاب نحو الآخر، ويمر بأجمل فصول العاطفة...

بمزاج الصبوة، ورغوة الوجد...

بسيرورة الكلف، وحرقة النجوى...

بحنين الشوق، وأنانية الخُلّة...

الحُبُّ كيمياء لا يمكن أن تتفاعل مع الموروثات.

وكلما اِنتهينا من قصة عشق، نفرغ شحنات عاطفتنا على الورق...

نكتبُ عنها نحن الحالمون بتأجيج شعلة الحياة كلما خفت ضوؤها...

قصتنا تتحول إلى رمادٍ ننثره أمام القُّراء بكل بهجة، دون أن يعلموا أنها حرائق قد غزت غابات الروح، وتركت آثار ندبٍ غير قابلة لمحوها.

نجود عليهم بهذا الرماد بكل توهجات جمره المدفون، وسرعان ما ينثرونه في طُرقات عِشقٍ جديدٍ قد بدأ في حياتهم للتو، يحفظون منه بعض العبارات، يُردِّدونها بشغف... وربما يتهكمون في صمتهم على فراغات البياض التي يصعُب على اليافعين فكّ ألغازها.

تفجَّرت عبوة قلق في وجهي، وأنا بين جموع الثائرين، أبحث عنك في الساحة التي ملأها الغاز والرصاص والدم والصراخ...

لم أعلم أنك كسرتَ أقفاص خوفي عليك وهربتَ لتبحث عن وطن...

عن الثأر من مُغتصبي حبيبتك الأزلية...

فلا عادت إليك هي...

ولا عُدتَ أنت إليَّ.

وِانسحب حلم البحث عن وطن...

مؤجلاً اِتقاده إلى زمنٍ آخر.

نَزق لحظة

لحظةٌ سقط فيها رماد أحزاننا إلى منفضة العمر...

مُصارحةٌ أعلنت مدَّ حبالها نحو أُفق لم يخلُ من تردد لموجات، لصدى ماضٍ مسكونٍ بندم...

طوفانٌ أعلنتُ بعد هدوء طقوسه أن تحطَّ سفينتي لتُنبئ بانطلاق شعاع لم يضل طريقه هذه المرة، نعم لم يضل، نحو غاباتِ قلبٍ طالما وقع في شراك خيبات.

وأنظر إلى هذه الأشرعة الممتدة في صوتك السافر، القادم من عُمق صدقٍ مفقودٍ اِعتدته سرابًا في زمن الضيق. وقبل أن نملأ رئتينا برائحة شاي أُصيب بنزلة بَرْدٍ على حافاتِ اِعترافٍ خجول.

يومها كنتُ أتأمل كيفية استنشاقنا ذاك الدُّخان المنبعث من دهاليز صدقٍ خفية.

فجأة نهض في دواخلي الممتدة إلى سواحل اليقظة؛ يقظتي، ماردٌ لم أكُن قد تعرَّفتُ بعد على ملامحه، أو قدرته على تقويم انحناءة قوس قزح، وتسطيحها مستقيمة نحو بوابة اِنفراجٍ مُباغِت.

الآن... الآن، وتحديدًا الآن، أتوق إلى لحظة كتلك، مُعبَّقة برائحة هال، علَّها تُضمِّخ ليل غُربتي، وتنحتُ في إرادتي تجاعيد رسَّامك الدادائي المُبتدئ، ذاك الذي لم يفطن بعد لمعنى اختلاط اللون وانسكابه من دورقٍ ذي فضاءٍ وحيد، مغلق، على سطحٍ مفتوحٍ وممدود.

أُدقِّق النظر في تلك الأفلاك... كم غارت نيازك، وكم منها سقط صريعًا في أحضان غفوتنا تلك، تلك لحظة حاسمة، تحوَّلت حاجتي إليك في فضاءاتها المترامية إلى خامة، اعتصرت أزمنتها لاستقطاب قطع من بلور رغبات، متناثر حول عنقك...

في تلك اللحظة، امتدت أصابع فرحي إلى سابع سماء، إذ أدركتُ أن الأرض لم تعد تتسع لجنوح أنوثتي وهي تتصبَّب عَرقًا عبر مسام العفوية.

••••

هل ستتسع سنواتٌ قادمة لرغبتي في أن أُضيف إلى لوحة غجري ضال ألوانَ أنوثتي الخفية دون أن يكمن لها قاع بدائيةٍ ساذجةٍ ويلتهمها؟!

هي رقصة القمر إذن على موائد اللوم حين كان يُمسِّد نهد فجيعته، أو حين هرب من نافذة مجهول وخطف بريق عيني، ورحل...

أيها العُمر نازلٌ في ذِكرك العدّ، وصاعِدٌ في أقفاصك الفارغة شهيق الحنين...

خبطتْ السُّحبُ السوداء في عينيك الدخان القادم من مدّ القلق ذاك، خبطته فاشتد صوت الرعد وهيمن على ما في الكون من أصوات ألفتها أُذناي... حتى موسيقى الروك لم يعد لصداها ذاك صخب «فولكنر» العنيف.

نعم في تلك اللحظة تحديدًا، سقطتْ إلى حضني قذيفة دهشة، وفجَّرتْ جسد ذلك الصمت المستكين عند حافة انتظار أشعث.

كنتُ أواصل النظر إلى سيجارتك، كانت ترتجف... وإلى شفتيك، تتطاير منهما حِمم كلماتٍ لا رابط لها سواي، حمم جرفتْ معها أعمار الندى ومتلازمة الشمس والزهرة.

لم يمر طويلاً الوقت حين وقعتُ على ممرِ ضوءٍ بين أدغال ذلك الجموح، لكننا مضينا فيه، اخترقناه بعد أن أحرقنا القاذورات التي كدّستها في ذواتنا سرادقُ عتمةٍ وعمَّدتها برهبةِ عبثٍ وانتصارِ فوضى.

اليوم بعد حِقبٍ وحِقب، تُعلن أصابع ذلك العبث رغبتها المُلِّحة في رسم المشهد ذاته: اختلاط النبيذ، لونًا ورائحةً وطَعمًا، وهو يتوِّج جسد المدى، ويؤجِّج وهج الأُفق البعيد، وهدير التقبيل.

تماوجات (لو) في غفلة الآلهة

قدَّمتَ لي قرابين كثيرة، ربما كانت نذرًا لريح، آه من تلك الريح، أراها وهي تقلع غصة إثر غصة من موانئ صدري... أرأيتَ صدري؟

أقرأتَ صدري؟

أأدركتَ من قبل صدرًا مثل صدري المُتمِّرس على تواتر الأحزان والمرارات؟!

أنت أم أنا... نحن لم نُغيِّر دفة الحياة، بل أدمنا جحيم الحرقة واللهفة المعربدتين لحظة ربطهما بالروح، وكنا عند أرصفة ذواتنا الرافضة فكرة أن تكون ظلاً... تلك ذواتنا الهاربة من زنزانة يقظة، لتعلن رصف مقاصلها فوق منصة النسيان، ووسط دبيب الحواس ورنين أجراس الضجر والكؤوس الطافحة برائحة جنون.

وكنتُ أقول لك ولكن في صمت، إن قماط الأسى الذي يلفعني منذ ولادتي لم يفك أربطته عني بعد برغم العقود الثلاثة التي اجتزتها وهي تُعبِّئ كأسها برحيق المغامرة.

وكنتُ أرى في جبهتك المتمردة بعض جروحي تفيق من سباتها العميق في الذاكرة... وكنتُ أراك وأنت تغرق في تلك النقطة الشَّاغرة على خطِّ استواء لقارات يانعة تتفجر خصبًا... آه لو كنت حرثت بورها.

أصرخ دون أن تسمع الروح الشاردة، وكيف تسمع وقد أغرقك موج الغرور إلى أذنيك في «برمودا»؟

أغمض جفنيَّ عن حماقة صُدفةٍ مارقة، فأحتكر الهدوء وأستكين في وادي الصمت ثانيةً...

تحسَّستُ حبَّات مطر تسقط وتُطهِّر ذلك الجرح...

أنتظر حتى ينهمر المطر أكثر كي تتدلَّى من ذاكرتي الموبوءة بوصايا قديسٍ رافضٍ طبيعة الأكوان.

ثم غادرتَني... تعلوني عُزلة الروح وغياب اللون، فكان فراري من عالمي في لحظة أمل يضيع.

وحين تقاطر على خدِّ الصُّدفة ثانيةً مطرك ليجمعنا معًا في ما وراء قارتي التي فيها اعتدتُ وحدتي وإصراري

على ألا أهِب أهدابي سبيلاً إلى الضوء...

حينها قفزتْ تفصيلات ذاك المشهد الناقص والرغبة في إتمامه، أو في كتابة سيناريو جديد أبحث فيَّ عنك وتبحث عني فيك، وسط شغب ومُشاكسة علَّها تُشكِّل مدارات وجودنا من جديد.

من أشيائي اللامتناهية هربت... من ضجيج آلهة تتصارع وتغتال بعضها البعض، أو تُمزِّق بعضها البعض فيّ أنا... آه... يا أنا يا أنت...

راسية كنتُ على حواف لوعة كحَّلتني وبها تكحَّلت...

آه يا لوعتي النابضة في المشهد ذاك، فيما النبض يرسم انحناءاته على تماوجات (لو) الراقصة بنا في أتون نيران البُّعد والمسافات التي تفصلني عني عنك.

كيف نقطع مسافة ذاك الذهول؟

وكيف نخيط من الكلمات عناقيدَ تُزيِّن لقاءنا؟

بل كيف نمدُّ أُمنياتنا إلى ساحل أمانٍ لا يملأه ضجيج الذاكرة ولا يدركه صباح؟

نتكاشف بأسرارنا أمام كأسٍ نحلم بأن ترتوي منه صدماتنا المتكررة، ونشرد بعيدًا... بعيدًا.

هل تظن أن فقاعة هذه المسافة ستُفقأ قريبًا لتلحم جناحي فراشتين خرجتا من شرانق الفزع لتتحدى إعصارًا آخر؟

سأضرب الرمل، أو تقرأ كفي غجرية رومانية، بل سأبحث عن دراهم حكمة الصين كي تنبئ لي عن لحظة غفلة الآلهة، لأتدحرج على سطح خرافة دون أن أُقدِّم قرابيني المُتوَّجة بأكاليل خوف...

فهل ستُعلن ابتسامتي انتصارها أمام مرآتي على عرش لقائنا؟ هل ستكون ابتسامة «ميرندا»؟

أم ستتحول إلى ابتسامة نزق أحدب يقذف بوجهي رغوة صحوةٍ ما... كي أعتلي ناصية غروري؟

يمكن أن يكون هذا تطُهرًا من أردان عدم، أو سكب تيزاب ملعون على قناع حقيقة صلب...

إلا أنه ليس تكفيرًا لقُدسية لحظة.

عودة هيباشيا (*)

قبائل من الهموم تتوسَّع على خارطتي المُرقَّعة، وتُجبرني على أن أستعير جناح غيمة لأُدوِّن ومضة فكرة تائهة في ملكوتي. بينما يرتدي كبرياؤك قُبعةَ زُحلٍ التفَّ بعباءة ليلٍ منسيٍّ على سورٍ أبكم.

أخطو بترُهلٍ بعد أن يجتاحني طوفان تعب، فأستندُ إلى عمود حضارةٍ شاحبة.

أو لم يتثاءب المُجندون في عينيك حينئذٍ للبحث عن رغيف البراءة في عينيّ؟

---

* هيباشيا أو هيباتيا: فيلسوفة يُرجح أنها ولدت في ٣٧٠ م في الإسكندرية، وتخصصت في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة. وتعد أول امرأة في التاريخ يلمع اسمها كعالمة رياضيات.
قُتِلت وسلخت على أيدي حشود دينية، بعد أن اتهموها بالإلحاد والتسبب في اضطرابات دينية.

لحظتها لم أكُن أُدرِك إلا أنني هيباشيا التي لوَّن دمها عُنقك، ولم تنجُ من سكين رهبانيتك الزائفة.

لم تخلُ دفاتر فلسفتي من شهقة حصان الوقت المغروسة حوافره في رمال الحياة الخشنة.

إذن هل يمكن أن أكون إلا هيباشيا التي قُتِلت على ضفة تجاهلك؟

في ذاك المساء رأيتُه ينكمش كمنديلٍ عتيقٍ في إطباقة راحة القدر، حين أخبرتُه أنني قرَّرتُ الرَّحيل...

نعم الرحيل، هو الرحيل؛ أخر بضاعة قد أُقايض بها رصيف خسارةِ أبله، فذلك ما تبقَّى من رعونة خطوات.

بل هو المعنى الهارب من قوقعة أشكال ثابتة متبوعة بعلامات معقوفة نحو فضولٍ سرعان ما غدا مُنبِّهًا دائمًا لروحي الشاردة.

وأنت لستَ قادرًا على اقتحام الخلايا الضَّاجة بالشوق، بل لم تكن قادرًا منذ عصورٍ على إزالة الخلايا الميتة في ذاكرتي.

أنت تنفث قشرة حُزني فقط، وتغمس أصابعك في عسل الحنين المتراكم عند أطراف بئر أعمق من قصائد «أدونيس»!

- أغِثني.

قُلتُها لك مِرارًا. فهذه الحرائق تغزو أطرافًا أخرى من رداء غابتي كل يوم.

لكنك صفعتَ ندائي بتجاهلك.

ألم تكُن تلك هي أسطورتي التي أبحث عنها يا «باولو كويللو»؟ وأنا طالما سعيتُ بحثًا عن كنزٍ مدفونٍ وراء الشفق بين تلك الأدغال؟

لكنني عُدتُ أدراجي إلى رحمٍ لم أُغادره حتى الساعة... أطرق بأسئلتي على جمجمة عنادك وصلابتك...

سألتُك:

- هل تعرف الفرق بيني وبينك؟

- ....!

- أنا أبحث عن لُغة المطر لحظة سجود عينيك في معبد حلمي المهجور.. وأنت تبحث عن محارة «مارتين موزينباخ».

- ....!

- نعم، منذ التفاحة الأولى التي علَّق عليها الرِّجال خيباتهم في لحظة حرجة من تقويمٍ ما.

- ....!

ولا أعرف حتى هذه اللحظة كيف أملأ فراغات تلك الأجوبة التي ما تزال عالقة كربطة عُنق جرسون، والتي لا يخلعها حتى في نومه!...

- قُلْ لي متى نُفرغ الهواء الفاسد من عِلب خياراتنا؟ وكيف سأحتفظ بعصافيرك على كتفي مدة أطول؟

- ....!

آه يا «إنكيدو» لو لم تتعاضد كلُّ الآلهة لقتلك... آه يا مَبعث الشمس الأولى، مَنْ يقدر على تمزيق خرائطك المحفورة على صِوان العصور؟ حتى «أنانا» لم تستطع إخفاء أباريق الفلاح التي هشَّمتها في معابد الفصول المتكررة من أعمار القُرون!

حُزني يتأجَّج عليك

(في كارثة زلزال وان)

غافِلةٌ عيون الآلهة، ومغمضةٌ قلوب البشر، وحُزني عليكِ يتأجج أكثر، كقُنبلةِ دهشةٍ انفجرت في السكون.

أيا طفلة أرغموها على أن تملأ بدمعها نهرًا شحيحًا كي يجمعوا عن ضفافه الملح...

ألفُ عامٍ وأنت تتوسدين الصمت، وتلتحفينه في حضرة الفراشات القادمة...

هل المخاوف صادرت أحلامنا، أم ثورتنا الثلجية ؟

لماذا صِرتِ عصية على الدمع والوهم وأسطورة للقطط ؟!

هو ذا حُزني عليكِ يتأجَّج...

لأنكِ رغيف رغبة حارٍّ في كوانين الحُرية...

ولأنكِ ترنيمة السنابل في السِّنين العجاف...

ولأنكِ نقيةٌ كخيوطِ الشمس...

ولأنكِ للعاشقين مِحرابٌ، وللزاهدين تكية...

ولأنكِ أزليةٌ كالحُبِ...

هكذا تعلَّمنا عزف النحيب على صدور السنوات القاحلة، وكنا نُكابِر بالصمت...

كيف أُبلغكِ حُزني من منفاي؟ كيف أُحوِّل كلماتي منديلاً لِيلفَّ جرحك؟

آآآه... أطراف الموت كم كانت طويلة، حين اقتنصتْ بربريةُ الطبيعةِ أطفالاً وهم يصرخون ويتشبثون عبر الأنقاض بذيل الحياة...

طفلٌ يصرخ:

- لا تموتي أُماه، لا تموتي.

وطفلةٌ تشهق أخر أنفاس الحياة، ولعبتها لمَّا تزل تُغنِّي...

كم أغوى الوطن جراحنا وتركها على خرائط المنفى، حين كان أبناؤك يلوكون الشوك إيذانًا بسنواتٍ من الجوع والبرد...

فدعيني الآن أسرد على جسر ذكرياتنا كل المِحن...

ها أنا أُعلِّق مع سترة المحارب التي أخلعها الآن، أُعلِّق عيوني على شبابيك الدعاء... في انتظار أحلامٍ سئمت الانتظار.

هشيمٌ، وبقايا ذكرى

ألفُ مِيل يبعدني عن حافة ذاك الهشيم، وأنا أُلقي عند كل مليمتر من أرض النصّ هذا بأسمالِ حُزني بين أحرُفٍ ضالة...

أتريد يا نبضي الخافق أن تُعلنها حربًا على أوصالي؟ أم تراك ستُخفي كسلحفاةٍ رأسَك داخل صَدَفة آمالٍ ضائعة!

هو ذا الخجل ينفخ فيما تبقّى من أبواقِ الصبر لينطفئ في روحي ذاك وهجٌ طالما ظَلّ مخبوءًا في غرور عينيك...

ما يُرهقني أنك تراهن على طأطأة رأس حلمي، وتلذُذك بغياب جنوني عن خرائط أحلامك...

ولأنك رائحةُ قَدَرٍ مخبوءٍ بين سنواتي العجاف، أراك بشراهة تفترس أيامي القادمة، وأرى الأيام تفترس هذه الانكسارات المتوالية، فلا أجد أمامي سوى أن ألتحف

الملل خوفًا من برد أعاصيرك، وأتوسد القلق خوفًا من زلازل غضبك وهي تهدُّ أركان بنائي القائم دونَ أعمدةٍ شرقية.

يُلبِّد سماء ذاكرتي بخارُ تحدٍ مُنبعثٍ من أروقة ضياعٍ ما، ومن صوتٍ عابرٍ للقارات، من القلب حتى الرأس يغمس إيقاعه في محبرتي العاقلة، كي يُسدل على مسرحية خيباتي المتكررة فيك ستارَ الوهم... فيما يذوب الحُزنُ المنتفخُ كله في اللا شيء.

كيف لي أن أُميِّز بين الجنون والعقل في زمن الهرطقة؟

كيف لي أن أُميِّز بين حدودٍ وهميةٍ على خارطةٍ ممحية؟

هذا هو عالم اليوم، مهووسٌ بالحرب والمال والعظمة والسراب.

غادِرْ أيها الألم إلى حيث فضاء البوح على ورقةٍ صماء تتسع لكل شيء...

وأنتِ يا باقةَ ورود لهفتي، هاجري إلى أحضان النص هذا، على ثورة هجرك العنيفة لتخمد الألم بين أضلاعي...

وبلِّل يا قلم شفة هذه الورقة الملساء، علَّ نشوةً ما تدبُّ في جسد الكلمات ساعة اللقاء.

قد لا يخفى عليك أيها المُتسلِّل إلى ثنايا قلبي أن ليس بيننا أحد...

وقد لا يخفى عليك أيضًا أنني سأُرصِّع ذاكرتك ثانيةً وثالثةً وعاشرةً؛ بماسات جنوني...

وسأرى حاجبيك يرتفعان ساعة يثلج صدرك بوحي المقطر من داليتي.

سأراك وأنت ينتفض لسانك حين تخفق أجنحة أسراري وتتراقص كنحلةٍ لحظة تقبيلها وجه زهرة.

أمَّا أوراق ذاكرتك فلن أطبعها باحتلام بعد أن هربتْ طيور أحلامي من أقفاصك وغادرت لياليك العمياء.

عمَّا قريب سيقطف منجلُ أحزاني ما تبقَّى بيننا من لمسٍ غير مرئي، وسيقطف حتى ذروة حمانا...

وسأراك أيضًا تتأبط رغيفَ خسارةٍ وجوعَ ليلةٍ باردة، فيما أعصر أنا ما تبقى من ثمار هذا النص المُترنِّح شوقًا، وأترك رحيقه يندلق عند حافة غدرك، لتشرب نخب كوارثنا القادمة...

ولك أن تلتف بملاءة هزائمك المتكررة.

لن أهديك تفاحة آدم وحدها، سأجعلهما تفاحتين...

وأرحلُ في وشم الزمان، وأواصل حفر ندمي عميقًا في رئة هذا المساء.

سأقفل كل النوافذ المُطِلة على القلب، وأُورِّث أحلامي للصدى والخريف الذي سيقضم ما تبقى من حداد.

قلبٌ عن صهوة الحُبِّ يترجَّل

لم تكُنْ كما أوهمني اِسمك أبدًا...

لأنك لم تستطع قطع دابر الشكوك داخلك، ولم تُصارِع جيوش الأوهام التي تُحيط بك...

بل لم تكن سوى رجل يدَّعي غموضَ ماضيه وصمت حاضره، حتى أصبح التجاهل زاده، والغرور زوادته.

وحين اِشتدَّ قوسُ القدر؛ أطلقتَ سهمك الغادر نحوي بلا هوادة!

لماذا؟...

لترهبني وتزيد من وعورة الطريق إليك؟

لتُوهمني بهمزة قطعٍ كانت وصلاً؟

أو لتستخرج من بين ضلوعي جمرَ شوقٍ خانقٍ تحت رماد أنقاض السنوات الفائتة، لدفنه من جديد بعد أن تأكدتَ بأنه مازال مُتقِدًا؟

لماذا تريد الثأر مني؟ وأنا التي كنتُ أترقب في أنفاسك الحنين.

لم تكن كما ظننتُك؛ رجلاً يقارع بسيفِ حكمته السُّفهاء، ويغمده حين النظر لامرأة فاتنة...

ولا كُنتَ مُنازلاً من أجل قلبٍ يهوى.

كُنتَ خائفًا مترددًا مهزومًا، رمى الكلمة على عتبة القلب وهرب...

كُنتَ مُتربِّصًا بثمرةٍ ناضجةٍ على شجرةٍ بعيدةٍ يشتهيها قلبك، ويخشى قطافها عقلك...

كُنتَ مسجونًا داخل ظنونك، مهووسًا بالكلمات، بخيلاً ويدك مغلولة إلى قلبك، تخاف أن تبسطها لكي لا تلامس يدي.

رأيتُك قادمًا من بعيد...

سمعتُ صهيل حصانك الجامح...

لكنني كلما اقتربتُ منك أكثر؛ كُنتَ تتلاشى أمام أنظاري...

حتى تيَّقنتُ أنه كان سرابًا.

أنت تُدرِك جيدًا ما فعلتَه ببراءةِ امرأةٍ هائِمةٍ آمنتْ بقلبك ليكون قِبلتها، قبل أن تزجَّ بها اختلافاتُ الكون البائسة إلى حضن الحياة.

بل تُدرِك أنك رميتَ لها سنارةً فيها كلماتٌ خافِتٌ ضوؤها، لتصطاد قلبًا خاويًا... ثم تتركه يتمرغ ألمًا في صمتك، وجهلك بالحُبِّ.

مِمَ تخاف؟

مِنْ عشقي الهادر كزوبعة في فنجان صباحاتك؟

مِنْ سمو روحي التي أمُدُّها نحوك فتفيض عطرًا لا يزول؟

عبثًا أحاول إقناعك أن الحياة لن تتكرر، وأننا لن نُبعثُ كما في الأساطير...

فلماذا تسعى باستمرار أن تُحيل هذا الفردوس إلى جحيم؟

اليوم فتحتُ الرسائل وقرأتُها واحدةً تلو الأخرى... كم أخجلتني رقّة كلماتي، وقسوة عباراتك...

كُنتُ أمُدُّ عينيَّ شوقًا لألتقط في رسالتك كلمةَ وصالٍ تزيد لوعتي وشغفي بك، ولم أتلقَ منك سوى عبارة

استئذانٍ صادمة، بأن فطورك سيبرد مثلك!

هل كنتَ تهزأ بعواطفي؟

أم تمتحن صبري وجلدي؟

يا لدرّك، أيُّ خنجرٍ مسمومٍ طعنتَني به حين استسلمتَ لخوفك وصلابتك وغرورك؟

أكادُ أختنقُ بالعَبَرات، لكنها لن تُطهِّر قلبي المُذنب والمتأرجح بين التوبة وعصيان العقل.

فتحتُ الباب على مصراعيه، وكل النوافذ المغلقة حولي؛ لكي أتخلَّص من عِطرك الذي ملأ الرئتين حدَّ الهذيان، ولأُعبِّر لك جهرًا بأنني قد اشتريتُ وِدَّك حقًا... لكن ذلك لا يعني قطعًا أنني قد بعتُ قلبي.

كيف غاب عني أنك مازلتَ تُدوِّن سطورًا مُدبقة بالحقد والثأر، لم تفلح الغربة في محوهما من دفتر ذكرياتك المُتشنجة، حتى عجز المنفى أن يُعلِّمك الألُفة والحنين، كما فشلتَ في تمثيل أدوار حملها اسمك البطولي عبر تاريخه الطويل.

آذيتني...

أبكيتني دمًا...

كُنتَ تريد أن تُمعِن في تعذيبي بسوط ساديتك المفرطة، فأبى كبريائي وانتفضتْ كرامتي، حتى غادرتُ عالمك المشحون بقُطب واحدٍ سالب.

أنت حطَّمتَ تمثالك داخلي بمعول كراهيتك... ثم أعدتَ قلبي المرهف إلى شرنقته، التي لن يغامر بالخروج منها مرةً أخرى إلى عالم أفَّاك وآثِم.

مُلتفتٌ لايصل !

لأول مرة حلَّقتُ معك عاليًّا فوق الغيم برغبة جامحة ، مشيتُ نحوك بخُطى ثابتة...

كُنتَ تترَّنح في خطواتك...

ترتعش في يدك الشُّعلة، ولا تعرف في أي كوكب ستضرم النار أولاً !

دفنتُ وجهي في صدرك لأُحرِّر دموعًا تمرَّدتْ على كبريائها في عيون عصية... فانهمرت مدرارًا لتروي ظمأ سنوات قاحلة.

كانت أصابعك ترسم أخاديدَ بين تموجات شعري...

وصلتَ إلى قمم الاكتشاف التي لم يصل اليها أحدٌ قبلك... حتى تجاوزت معك الرغبات الصغيرة.

- قُل لي: أُحبكِ.

- ألم تُدركي بعد؟

- بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

- سآخذ الكلمة بحروفها الأربعة لتلتقط من قلبي سِرَّه، ثم أُطلقُ سراحها في جهات المعمورة الأربع... ثم نادي حروفها سيأتين اليك سعيًا ليجتمعنَّ في فؤادكِ، أليس هذا بُرهان قلبي؟

- حُبُّك رهاني الأخير، فلا تتركني قيد هواجس البُّعد.

- اِطمئني، أعِدُكِ.

بعد ساعاتٍ أطلق رصاصة غدره ومضى.

قدرٌ محتومٌ أنك ستغادر يوماً بلا عودة، لتحرِّر روحك من قيود العشق الذي يفرض طوقًا خفيًّا حول رقبتك!

تحب وتعشق، لكن خوفك يُبحر فيك بلا بوصلة.

لم يتسع قلبك للتناقضات أبدًا...

كُنتَ تمثِّل دورًا بائسًا لرجلٍ نصف حكيم.

تطرق الباب بيدك اليمنى، ويدك اليُّسرى تسحبها وتوبِّخها!!

أمَّا أنا فكنتُ طفلةً تبكي وتضحك ، تودِّع وتعود ، تصرخ وتصمت في لحظةٍ واحدة !

تشابهتْ الأيامُ علينا... فغادرتُك بعد يأسٍ ودون أن التفت، فالملتفت لايصل أبدًا !

وأبيتُ أن أبقى مثل ساعةٍ معطَّلةٍ على جدارٍ آيلٍ للسقوط.

عندما غادرتُك بدأتُ أحصي غنائم غزواتك !

الآن...

أشتاقُ وأشتاق، ولكنني أدرك أننا على طرفي نقيض في علاقةٍ لا اِسم لها ولا عنوان... لا لُغة تجمعها... لا ماضٍ يلمُّها... ولا غدًا ينتظرها.

سندباد اِختطفتْه غَفْوة

على ضفاف يومٍ آخر، كعادتي أقِفُ مهووسةً في رسمِ حُلمٍ غارقٍ فيك... وتقف أنت في الضفة الأُخرى قبال حضارة شاحبة، يفصلني عنك نهرُ حُزنٍ عميقٍ، قد نغرق فيه إن حاولنا العبور.

أنظرُ إليك، وأدعوك لسماع لحنِ جوالٍ صادرٍ من دهاليز قلبي...

فيما تدعوني أنت لسماع أصوات القنابل!

هو الاختلاف بين أوجه الحضارة يا صديقي.

أصواتُنا الحُرة ما تزال مشدودة بحبال زمنٍ مضى، يطبق عليها الخوف بأنيابٍ شرسة.

ومع كل ما جرى، أقف هناك في ساحة الوعي بين جموع غفيرة من حروفٍ وكلماتٍ مختلفة الألوان والقامات...

لكنني أتردَّد، بل أعجز أن أقول لك بأنني أحبك... بعد أن بنيتَ بيننا الجدار تلو الجدار... ومضيت.

تصفعني الدهشة بجناحٍ عملاق، وتُعيدني إلى نفسي، لأمسحَ ذاكرتي من هذا العرق المُتصبِّب إزاء الاختلاف، الذي لم تسمح لي بحرقه على جمر مشاعرنا.

••••

في طفولتي كان أبي يهرب بي من أحضان مدينة أصابتها عدوى الضياع، إلى أُخرى تقصفها الطائرات، لتُمزِّق ثوب مساءاتنا الهادئة، بعد أن تُفرِغ غضبها فوق جبالٍ ووديانٍ عميقة في ذات الزمن المتقيح، حتى ضفادع الماء المطروحة على ضفاف دجلة الحزن والأسماك المنتحرة الخياشيم؛ لم تكن تجيد سوى لُغة واحدة وهي موت الاختلاف.

وعندما بلغتُ؛ لم أُصدَّق ما قالوه، لم أثق بكُتب التاريخ وهي تسرق منا إنسانيتنا وتُقسِّمنا أنواعًا. وكيف أثق بسيرةٍ هي من صنع مخيلة مُنتصرٍ متبجح، وهل كانت أكثر من نصوصٍ أجاد مُدوِّنوها تقمُص الأدوار؟

خشبة مسرح هي الحياة يا حبيبي، وعلينا إجادة الدور أمام مُتفرِّج واحد يرتدي ثوبَ قدر.

أنت مازلت في عصرك الرجعي، تئدّ الحقيقة كلما وُلِدتْ، خوفًا من أن تنبت لها قرونٌ فتصرعك وترمي بك إلى أحضاني.

دفنتَ حبك في رمال النفس المُتقلِّبة، وقتلتَ صرخاته المتكررة في عينيك.

هنيئًا لك...

ها أنا قد غادرتُ بعد يقيني بأن مناجل عشقي لن تحصد سوى أشواك بساتينك...

ها هي ذي حوريتك المنحوتة بأصابع زمنك، منسية على صخرة تجاهلك، تنشد أغنية حُبٍّ تاه...

تنظر إليك في غُربتك التي تقسمها نصفين: نصفًا يعزف لحنًا هناك على ضفة نهر الحزن، ونصفًا آخر تصارع به مخيلتها التي مازالت أطلال غزوتك شاخِصةً فيها.

تسألُني:

– لِمَ كل هذا؟ ونحن لم نلتقِ بعد.

سأقول لك:

لأن مطاف الحلم هذا انتهى بي إلى أن أُضرم النار في غابات معمورتي كلما كنتُ أتحدث إليك، وقبلك كانت آمنة.

أكان جنونًا؟ أم هروبًا كان؟

هذيانَ أم حُبًّا جنينيًا لم تتضح معالمه بعد؟

أم ماذا؟

كنتُ قادِمةً نحوك من عمق دهاليز خوف، بفستان مُرقَّع بذكريات أليمة، وذاكرة محشوة برصاصات غدر.

يومها مَدَّ حنيني أصابعه لتشتبك بأصابع حنينك، ويومها تسرَّبت من بينها سنوات وسنوات...

ها أنا اليوم أقف أمام مرآة ضياعي، تصفعني المفاجأة، وتهزني بعنف يفوق عنف تلك الدهشة لتقول لي: كأن شيئًا لم يكن!

تقول ذلك وتهبط بي إلى قاع السؤال:

أحقًا كان حُبنا حلمًا؟

أحقًا كان هدفًا تخترقه الدموع بعد أن ترهل ملحها على شفاه رجفتنا؟

ما زلتُ أحلم أن أسند رأسي المثقل على وسادة صدرك الدافئ.

سألتُك بكامل عفويتي يومًا:

- لِمَ لا نكون أنا وأنت شيئًا آخر؟ لِمَ لا نلتقي خارج أسوار الغُربة الشاهقة؟

لكنك صفعتَ سؤالي بكفِّ خُرافات عجوز التقاليد الهرِمة!

أعذُرك، لأنك لا تدرك بعد ما حدث في مجرة كياني.

لقد انقلب السحر على الساحر، وغطَّ في نومٍ عميقٍ زمن التخاطر.

على ذلك اليقين أدركتُ فقط أن قلبي لم يكن بالنسبة لك سوى جزيرة سندباد بريٍّ اختطفتْه غفوةٌ فوق ظَهْرِ حُوتٍ تائه!

● ● ● ●

د. خالدة خليل

- أديبة وناقدة وسياسية.
- حاصلة على الدكتوراه في اللغة والأدب والحضارة العربية من جامعة تونس - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- درست اللغة الألمانية في جامعة زارلاند ـ ألمانيا.
- مستشار هيئة الرئاسة في برلمان إقليم كردستان.
- عضو مجلس النواب العراقي الدورة الرابعة.
- عضو مكتب العلاقات الخارجية للحزب الديمقراطي الكردستاني.
- المتحدث الرسمي لمقر «البارزاني».
- حصلت على العديد من الجوائز الدولية والمحلية
- سُميت باسمها الدورة السادسة للمهرجان الدولي للإبداع الشعري في فاس، المغرب.
- كُرِمت من قِبل وزارة الثقافة والشباب في إقليم كردستان، شهر مايو ٢٠١٦.
- كتبت وترجمت العديد من الدراسات النقدية والمقالات والأبحاث في الصحف والمواقع العراقية والعربية.
- تم تكريمها في مركز الأبحاث والدراسات المستقبلية في جامعة «عين شمس» بالقاهرة، في آذار ٢٠١٧.
- شاركت في العديد من المؤتمرات والملتقيات الثقافية داخل وخارج العراق.

- كتب العديد من النُّقاد العراقيين والعرب عن تجربتها الإبداعية ومنهم:

- اخضرار النص في مواسم الكلام - قراءات في إبداع خالدة خليل: مطبعة الثقافة، أربيل، ٢٠١٦.

- رسالة دكتوراه في جامعة بغداد عن روايتها (أشرعة الهُّراء): مقدَّمة من قِبل الطالب «كريم ناجي» بعنوان (تعدُد الأجناس في الرواية العراقية).

- كتب مجموعة من النقاد المغاربة بحوثًا عن أشعارها في ديوانها (تأملات رماد) وطُبع في كتاب بعنوان «المملكة المغربية تحتفي بالشاعرة د.خالدة خليل. مطبعة خاني، دهوك، ٢٠١٧.

- صدر لها:

- شرنقة الحُمى: شعر. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٠٨.

- أشرعة الهُراء: رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٠٩.

- تفكيك النص - مقاربات دلالية في نصوص منتخبة: كتاب في النقد. اتحاد الأدباء الكُرد في دهوك، ٢٠١١.

- توهجات رماد: شعر. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٣١٠٢.

- اختلاف الرؤى والتلقي في الخطاب الشعري. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٤.

- شرق المتوسط: البنية السردية وآليات تشكيلها الفني. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٣.

- الديمقراطية الناشئة في العراق: التحديات والمآلات. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٤.
- بحرٌ يمور على كفي: النص المَفتوح. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٤.

- كُتب مشتركة مع مؤلفين آخرين:

- ينابيع النص وجماليات التشكيل: قراءات في شعر «بُشرى البستاني». مجموعة باحثين. تقديم: د. خليل شكري هياس. دار دجلة للنشر والتوزيع، عمَّان، ٢٠١٢.
- جماليات النص وتنوع الخطاب: مجموعة باحثين. تقديم: د. خليل شكري هياس. دار تموز للنشر، دمشق، ٢٠١٢.
- خارج الوطن... داخل الحلم: كتاب يروي قصة مبدعات عراقيات في المنفى. فاتن الجابري. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٦.

- كتبت مقدمات عدة كتب من أهمها:

- تعدُد الرؤى في إكليل موسيقى على جثة بيانو للشاعر جواد الحطاب: صدر عن دار ناشرون، بغداد، ٢٠١٣.
- الحوار حلاً في طروحات السياسي الكردي فاضل ميراني: صدر عن مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٣.

- البريد الإلكتروني : khaledakhaleel@hotmail.com

فهرس النصوص

حانَ قِطافُ الخَجل ٩
غصة حلم في الطريق إلى صمته الأبدي ١٣
كهفُ حُـزْن ١٥
النِّداء الأخير ١٩
لِقَاء نـيء ٢٣
شريعة الشَّوق ٢٩
حُمى تشرين ٣٣
نَزق لحظة ٣٩
تماوجات (لو) في غفلة الآلهة ٤٣
عودة هيباشيا ٤٧
حُزني يتأجَّج عليك ٥١
هشيم، وبقايا ذكرى ٥٥
قلبٌ عن صهوة الحُبِّ يترجَّل ٥٩
مُلتفتٌ لايصل ! ٦٥
سندباد اِختطفته غفوة ٦٩

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net